رحلة الضياع

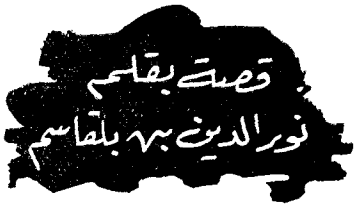

الاهداء :

الى الذين يتعذبون في أقطار الارض فينهكهم الظلم وتعصف بهم الانانية .

والى الذين يزعمون بناء الحضارة الحديثة باليمين ، ولكنهم يهدمونها بالشمال من حيث لا يشعرون .

غابة البؤس :

بكت زوجة « آرم سترونق » لما عرفت اننا قد أخطأنا ، وان المركبة التي نقلنا قد تاهت ، ونزلت على كوكب مجهول .

التفتت الينا وعلى وجهها آثار الدموع قائلة :

ـ لقد انقضى الامر . وكتب علينا الضياع .

ونظرت الى اسفل والدموع تتساقط من عينيها . فأمسك « آرم » يديها برفق ، فرفعت رأسها ببطء كالعائد من رحلة مضنية، وارتمت على ذراعي « آرم » كالطفل نجهش بالبكاء .

انحنى عليها « آرم » وقبل جبينها برفق ، فقالت له منتهدة :

ـ ان أرضنا الحبيبة يا « آرم » قد انقطعنا عنها . ولن نشاهد البحر من جديد ، ولا نتسلى برؤية الاطفال ، أو نمتع أنظارنا بالرعيان وهم عائدون من الحقول . هنا يا « آرم » لا أغنية فلاح تأتينا ، ولا أغرودة عصفور ... ان كل ما في هذا العالم يملأني حزنا.

وامتلأت عيناها دموعا من جديد ... فرفع « آرم » رأسه يسألني عن أي الطرق نسلك ... لم أكلمه بوضوح ، بل نظرت الى الطريق الممتد امامنا ، وسرت أمامهما سيرة الضائع ... الطريق الذي نسير فيه مغشى بالضباب الكثيف الازرق ، وعلى جانبيه أشواك طويلة مدببة ممتدة تجاهنا كأنياب الافاعي ، وأرضيته مغطاة بتربة حمراء كأنها ممزوجة بالدماء ... نحن مرغمون على ان ننظر تحت اقدامنا ونحن نسير اذ لم نستطع النظر الى بعيد ، لان الخوف ينهش قلوبنا . وازداد خوفنا عندما سمعنا أصواتا غريبة ومتنوعة تبلغ آذاننا من بعيد ، بعضها يشبه مواء القطط ، وبعضها عواء الذئاب ، وبعضها الآخر حشرجة المذبوحين .

ولما سرنا طويلا تباعدت الاصوات ، ولم يبق الا أنين غريب يبلغ آذاننا ، وينقلب أحيانا الى ما يشبه البكاء ...

بدأ الضباب الكثيف يتجلى فظهرت لنا من خلاله هوّة عميقة تمتد على جانبي الطريق ، وبدت لنا أشجار عارية تطل من قاع الهوّة في كبرياء . تطلعنا اليها عسانا نجد ثمرا لنأكل، وقد أحسسنا بأصابع الجوع تعصر أمعاءنا ، ولفحتنا رائحة كريهة عندما كنا نطل على رؤوس الاشجار النامية في قعر الهوّة ... وتعلقت أبصارنا بشجرة قريبة من الطريق جرداء كالاخريات من الاوراق فيها ما يشبه الاكر المعلقة . لم نستطع ان نتبين جيدا ما اذا كان ذلك المعلق نوعا من الثمار أم أنه شيء آخر ، لان الضباب ما زال يغشي ما بيننا وبينها من مسافة ... اقتربنا من الشجرة بدافع البحث عن الاكل ، ودرنا حولها نحلم بالشبع من ذلك الثمر الضخم ، ورفعنا انظارنا الى أعوادها فرأينا رؤوسا آدمية مقطوعة من الرقاب تتدلى السنتها ، وهي معلقة في الاعواد . والموت يطل من وراء الاسنان ليحيينا بابتسامة موحشة ... امتدت الالسنة وطالت عندما وقفنا تحت الشجرة ، وتدلت تجاهنا كأنها تريد أن تلعقنا ...

لم نستطع ان نفعل شيئا لما دبّ الجمود في أعصابنا ، فبقينا نعرض النظر لبعضنا بعضا .. وحركنا صوت قوي مدوّ وصيحة عالية تشبه الانذار فافاقت عند ذلك زوجة « آرم » من دهشتها وانهلت عيناها الجميلتان دموعا . وحثثنا على الرجوع الى الطريق...

حاولنا أن نتخطى الاشواك المتشابكة بحذر ، ولكنها كانت تخزنا كابر العقارب عندما كنا راجعين الى الطريق من جديد ... أما الاشجار الاخرى فقد بانت تطالعنا في كبرياء ، وقد علق في كل واحدة أطنان من الرؤوس الآدمية المقطوعة .

لم تكف زوجة « آرم » عن البكاء حتى في الطريق ... كانت تبكي حتى أبكتنا معها ، ذاكرة الانسانية والعالم والمصير في غدغمة البكاء ... فزاد ذلك من غربتنا ، وضخمها ما رأيناه من تبدل الاشياء وتغير سحنة العالم ، وخوفنا من مفاجآت الاحداث ...

لما تجلى الضباب لاح لنا في الطريق جمع من الناس غفير ، ذو وجوه غريبة تحاكي وجوه سكان القبور .

اعترضوا طريقنا وهم يسيرون بالدوي ، ويتحدثون بالصياح . وبافترابهم منا كثرت اشاراتهم وهمهماتهم والتفاتاتهم ، وكلمونا بكلام لم نفهم له معنى ... ولحق بالجمع شيخ يجري على قدميه ، ولما اقترب منا وتبين ثلاثتنا ، نظر في وجوهنا نظرة المتأمل الفاحص وخاطبنا متعجبا بكلام أرضي :

ـ غريب أن أراكم في هذا المكان !

قلنا له :

ـ لقد ضعنا وابتعدنا عن أمنا الارض .

قال وهو يداري ابتسامة :

ـ لقد كنت مثلكم أحب الارض فعمرت فيها طويلا ولم أعرف منها شيئا . وفي آخر الرحلة وصلت الى هذا المكان فاكتشفت سرّ الارض ...

ثم أضاف يسألنا :

ـ هل حملتكم « جمال القدرة »(1) الى هذا المكان ؟

أجابه « آرم »

ـ لقد تاهت مركبتنا ونزلت على هذا الكوكب .

فتمتم متعجبا :

ـ مركبة .. هل هذا نوع جديد من « جمال القدرة » ؟

---

1 ـ تقول الاسطورة الشعبية المنتشرة في ريف « هبيرة » ان « جمال القدرة » هي عبارة عن نوع من الملائكة تحمل المظلومين والخيرين من كافة أنحاء الارض الى مكة ليدفنوا أو يحيوا هناك . ولكنني في القصة قلبت واقع الاسطورة ، فجعلت « جمال القدرة » تحمل الناس اختلافهم من الارض الى العالم الذي ضاع فيه نايل آرم سترونق عندما تاهت به المركبة ، والذي هو عبارة عن مرآة للارض .

قلت له في حماس :

ـ اننا صرنا أقوياء في الارض . وانت ترى أننا أتينا الى هذا المكان ، واننا صنعنا « جمال القدرة » بانفسنا .

ابتسم الشيخ كالساخر وقال :

ـ لقد جلبتكم المصادفة الى هذا المكان الذي هو مرآة الارض... وسترون حقائقنا الارضية في هذا العالم عارية من الزيف ...

صمت الشيخ وحانت منه التفاتة الى زوجة « آرم » ، فرأى على عينيها اثار الدموع ، فسألنا عن سبب بكائها .. فأخبره « آرم » عن الرؤوس المقطوعة المعلقة في الاشجار وعن الهوّة السحيقة التي تحف بالطريق .

قال الشيخ ببطء واشفاق :

ـ هل دخلتم غابة البؤس ؟

قلنا له مستفسرين :

ـ وما غابة البؤس ؟

قال بحزن :

ـ هي تلك التي يوجد على أشجارها رؤوس معلقة .

قلنا له :

ـ لقد دخلناها لنبحث عن طعام .

قال ، وهو يداري حزنا عميقا :

ـ أنتم أول من دخل « غابة البؤس » وخرج آمنا على نفسه .

سألته زوجة « آرم » عن الرؤوس المقطوعة في ارتجاف :

ـ لماذا علقت الرؤوس بين الارض والفضاء ؟؟

قال الشيخ :

ـ كلما قطعتم رؤوسا آدمية في الارض ظلما الا وحملتها «جمال القدرة» من بينكم الى هنا . حتى تعلق في غابة البؤس .

أردفت زوجة « آرم » :

ـ ولكن مأساة كبرى أطلت عليّ لما رأيتها .

قال الشيخ :

ـ المأساة الكبرى تطل على العالم كلما فتكتم بالابرياء .

قالت له في استفهام :

ـ ولكن خير لتلك الرؤوس ان تقبر من أن تظل معلقة في الفضاء.

عقب الشيخ على كلامها قائلا :

ـ كل رأس من الرؤوس المقطوعة يبقى على عوده ، ليستنزل اللعنة على قاطعه .

ـ اضافت في لجاجه :

ـ وكيف تحمل الى هنا ؟

قال الشيخ :

ـ كما حملت أنا وحمل الكثيرون بواسطة « جمال القدرة » الحمّالة للخيرين والمظلومين والمحبين المخلصين ، والظالمين الشررة ليأخذ كل ذي حق حقه منهم .

وصمتنا ، والسكون يلفنا .

العالم الذي نحن فيه هو عالم الاقذية القاتلة ، ونفوسنا الملأى بالمخاوف ستبقى على الدوام وقودا لحمى القلق النامية في مستنقعات المآسي ... أطراقة الشيخ الحزينة تحمل هموم الف عام وعام . نظر الشيخ في وجوهنا لما رآنا نتطلع الى اخر الطريق ،وسار معنا ، وهو يحدثنا بلهجة ارضية .

قال :

انكم لن تستطيعوا فهم ما يقوله سكان هذا العالم ، لانكم غرباء. وأخشى أن تموتوا خوفا أو أذى اذا لم أرشدكم الى ما تفعلون .

قلت في اندفاع الماسك بخيط امل :

ـ ألك ما تشير به علينا ، يا شيخ ؟

تكلم بهدوء مشيرا بيده الى الامام :

ـ عندما تصلون نهاية هذا الطريق ستجدون نهرا كبيرا يسلك بين جبلين يدعى « نهر الغرباء » ، تطهروا بمائه ، فستعرفون بعد ذلك كل شيء عن هذا العالم ، وبامكانكم ـ بعد التطهر ـ أن تعرفوا أنفسكم وتعرفوا حيانكم ومصيركم .

قال « آرم » في استغراب :

ـ ولكن ما شأن النهر وهذا ؟

أجابه الشيخ :

ـ ذلك سر ليس من المروءة ان افوله ، وقد اؤتمنت على حفظه .

ثم تكلمت زوجة « آرم » ، وقد بدا عليها العياء :

ـ ان الطريق ، يا شيخ ، يزيد تعبنا ، وقد تعبنا من قبل ، وتكدس على أقدامنا غبار ملايين السنين .

ضرب الشيخ ناصيته كمن تذكر شيئا وأشار علينا باتباعه . حاد قليلا عن الطريق ، وقصد شجرة بدت عليها أوراق كثيرة حمراء ، وقف بقربها ، وأشار اليها متحدثا :

ـ هذه « شجرة القوة » كلوا من أوراقها فسيزول عنكم التعب، وتستطيعون التنقل بأقدام أرسخ من الجبال ، لانكم ستمسكون ناصية الالفة ... وتخضعون حتى الابالسة عندما تتقنون لغة القوة .... كلوا من هذه الاوراق ... كلوا منها ... ولكن ليكن أكلكم هذا بعد النطهر في نهر الغرباء ...

نط « آرم » وقد اخذته نشوة الفرح كالطفل ، وقال ، وفي عينيه أطنان من الامل الغريب :

ـ اذن سأزيل طوايا بطني بالاكل منها ، لانني اكره الضعف كرهي للشيطان، ولانني أرغب في القوة رغبتي في الحب والحرية ..

قال الشيخ محذرا :

ـ اياك ان تأكل اكثر من عشرة اوراق ، لان القوة يسقبها الغرور وتنميها الخيلاء ... وهي تفاعل التيار المتعارض ... انك ستأكل ذاتك بذاتك اذا زدت على اللازم ... وأخشى ان تهلك رفاقك في الطريق ... بصر المرأة الجميلة الضائع فيما حولنا يثير في النفس الشجون ، وعدم سماعها لما تحدث به الشيخ يرمز لضياعها في هذا العالم ...

جمعت من « شجرة القوة » عشر اوراق ، وجمع « آرم » عشرين ورقة ، وعدنا الى الطريق نساير الشيخ الصامت الناظر تارة الى الامام ، وطورا الى الهاوية السحيقة التي تحفنا ... وعلى لحيته الطويلة الواصلة الى اسفل صدره بياض الثلوج ، وفي أعلى رأسه صلعة قد انعكس عليها نور احمر يدفع به نجم من النجوم . وفي قصر قامته وحدة نظراته جاذبية خفية تزيد منها أثوابه البيضاء التي لم نر مثلها من قبل ... رفع رأسه بعد صمت استغرق مسافة قائلا :

ـ عليكم ان تصلوا الى النهر قبل وقت الغروب ، لانكم ستسحقون بالجموع الآتية الى النهر في مثل هذا الوقت ، تطهروا قبلكم وستمسكون شغاف قلوبهم .

سألت الشيخ عن المدينة وعن وقت الوصول اليها فأجاب :

ـ المدينة بعيدة . وستصلونها في نهاية الرحلة .

فقالت له زوجة « آرم » ::

ـ أين سننام هذه الليلة ؟

ـ قال :

ـ في الخلاء .

انحنت امامه رافعة نحوه يدها الصغيرتين وهي تخاطبه في استعطاف :

ـ ألا تستطيع مرافقتنا ، يا شيخ .. لاننا بدونك سنضيع ، ولا نعرف الطريق .

قال لها :

ـ اليوم لا يمكنني أن أرافقكم ، لانني ذاهب الى حفلة عزاء . ولكن في صباح الغد سألاقيكم على ضفة نهر الغرباء قبل ظهور النور .

ثم ودعنا واتخذ طريقا آخر يحاذي غابة البؤس ، وغاب عن أنظارنا بين الاغوار .

الصمت يلفنا ونحن نسير ، والهوة التي تحف جانبي الطريق ما زالت تحاذينا .

تقدم « آرم » الى حافة الطريق ليحدق في اعماق الهوة . نظر في أعماقها والتفت الينا وقد تغير وجهه ، ثم نظر ثانية وأشار علينا « ان تقدموا » فخطونا نحوه ونظرنا الى حيث ينظر ، فرأينا في أعماق الهوة هياكل عظمية بيضاء مكدسة ، وجماجم كثيرة متناثرة . وفوق العظام تزحف أفاع كبيرة فتبتلع العظام بيسر . ولما رأتنا ننظر الى أسفل أحدثت أصواتا ليست بالزعيق ولا بالفحيح وانما هي اصوات موحشة أثارت في قلوبنا الخوف ، وزادت في شعورنا بالغربة .

حاولت الزواحف ان تتسلق الينا ، ولكنها لم تستطيع فتزحلقت الى أسفل وارتطمت أجسامها بالجماجم والعظام فأحدثت قرقعا تشبه خبط الطبول ...

أشار علينا « آرم » بالمسير ، وهو ما يزال يحدق في الهوة . والتفت فرأى المرأة الجميلة قد تغير لون وجهها الوردي الى صفرة ورآها تتهاوى على الطريق ، فأسرع اليها وأسرعت معه فوجدناها قد اغمي عليها . لم تستطع هذه المرأة الجميلة ان تتحمل اعباء سفرة طويلة مع المخاوف التي تعترضنا في رحلة الضياع .. حاولنا علاجها بأن يضع « آرم » ورقة من أوراق « شجرة القوة » وقطر ماءها في فمها الصغير .. وبعد لحظة فتحت عينيها الجميلتين فوجدت نفسها بين أيدينا . ابتسمت من وراء شفتين صغيرتين قرمزيتين ابتسامة الرضا المشوبة بوهن قديم ... ثم قامت وسارت معنا ببطء . ولكنها لم تمش طويلا حتى عجزت عن المسير ..

قال لها « آرم » في حنان :

ـ هيا اصعدي على كتفي .

وتربعت بتودة على هامته . وسرنا على مهل ونشيد الحزن يتردد في أعماقنا .

لم يبق بيننا وبين النهر الا مسافة وجيزة عندما بدأت رفيقتنا تتألم من الاعياء الذي أصابها ..

تحدثت في شبه هذيان عن رحلة طويلة بدأتها منذ الازل فلاقت فيها مشقة وصعوبة ، وضروبا من الامتحانات كثيرة . وسقطت أثناءها كثيرا على الطريق ...

ثم تحركت مرافقتنا فوق ظهر « آرم » وألقت رأسها الجميل على احدى كتفيه فتهدل شعرها الناعم على صدره . ثم قالت مأخوذة بشبه حمى :

ـ رغم رحلتي الطويلة التي تمرغت فيها كثيرا على الطين استطعت ان أبقى شابة محافظة على فتوتي ، وتمكنت من أن أتزوج « آرم » فأبلغ معه قمة مجدي مما أنساني أتعابي القديمة .

وانهلت دموعها على صدره متتابعة .. دموع اختلط فيها الفرح بالذكريات القديمة المؤلمة ..

ثم أضافت هاذية :

ـ لقد كان لي أبناء كثيرون أكل بعضهم بعضا ، وتطاحنوا وتدارسوا والفجر لما يظهر بعد ..

أطبقت أهدابها السوداء وسكتت ، فنظرت الى « آرم » مستغربا من هذيانها فلم يلتفت الي ، بل رأيته يفتش عن مواضع أقدامه في الطريق ، حتى لا يعثر في حفرة او حجرة ناتئة فتسقط محبوبته من فوق ظهره .

ملامح « آرم » تنم على عزيمة قوية يطوف عليها طائف من ألم دفين .. لقد انبثق النور في قلبه وعليه ان يبلغ الغاية والا فليمت دونها شهيدا .

وصلنا نهر الغرباء قبل المغيب . فوجدنا النهر عظيما ينحدر بين جبلين مقوسين كحاجب الحسناء . وينبع من جبل ثالث ماء يبعد عن الآخرين قليلا .

قال لي « آرم » :

ـ علينا بالوقوف على المنبع قبل التطهر في مياه النهر .

سرنا حيث يخرج الماء فلاحت لنا عين كبيرة في سفح الجبل . لم تكن كالعيون التي ألفناها . بل كانت عين آدمية كبيرة ملتصقة في جنب الجبل ترشح دموعا باستمرار ، وقد جذبتنا بأهدابها السوداء ولونها الازرق المشوب بخضرة . ودموعها المنهمرة تتساقط في مصب النهر فتزيد في هيجانه ، وزادتنا شعورا بالمأساة عندما رأينا دموعها تتكاثر باستمرار ونحن نحدق فيها .

أشار « آرم » بأن نذهب الى مكان على ضفة نهر الغرباء تبدو فيه آثار اقدام . ثم قال لنا ، ونحن نبتعد عن العين :

ـ هيا نتطهر قبل الظلام .

قلت في لوعة :

ـ أبالدموع ؟؟

قال :

ـ ليكن ذلك اذا استطعنا بالتطهر فهم العالم وحب من فيه .

لما وصلنا المكان المقصود ، أنزل « آرم » المرأة الجميلة من فوق ظهره ، وأخذ ورقة أخرى من « شجرة القوة » وأطعمها اياها ، فانتعشت قليلا ، وذهب عنها الدوار . ثم غرف « آرم » حفنة من مياه النهر ومسح بها وجهها الوردي ، فزالت عنها صفرة خفيفة تشوب بشرتها الصافية ، ولكنها بدأت تبكي لغير سبب .. انحنى عليها « آرم » بحنان وقبل جبينها ، فرفعت نحوه عينين ناعستين ، ونظرت الى مياه النهر كأنها تلومه على اتيانه اليه . ثم تكلمت بعد صمت :

ـ ان العيون كثيرة ، يا « آرم » في هذا العالم ، وجميعها يبكي على الدوام ، فكيف لي ان أشربها وان اغتسل بها وأنا اكره الدموع ؟

ربت آرم على كتفيها باشفاق ونظر الى بعيد كمن يستشف شيئا مجهولا ، ثم نزع ثيابه وبدأ يتطهر . ففعلت مثله ..

قبل الظلام سمعنا أصواتا مفهومة ووقع اقدام ثقيلة آتية من وراء الجبل ، فأسرعنا الى الابتعاد عن شاطيء النهر كما أشار علينا الشيخ بذلك . وسرنا ونحن نلوك أوراقا من « شجرة القوة » فشعرنا بنشاط لا حد له .. . ولكننا دخلنا في الخلاء وقد بدأ الظلام يلفنا ، وأحسسنا بارهاق بعد مسيرة دامت قرونا ، فدرنا وراء مصب النهر فلاحت لنا من بعيد بناءات دائرية تشبه الاسوار، تجلت لنا تحت بقايا نور خافت ، فحثثنا الخطى نحوها لنبحث عن مكان للراحة .

مقابر العهد الجديد :

وصلنا البناءات الدائرية فوجدنا أسوارا عالية متباعدة في ذلك الخلاء .

درنا حول سور واسع فعثرنا من الناحية الشرقية على باب واحد صغير كتب أعلاه بلون أسود غليظ « مقبرة العهد الجديد » .

قال « آرم » :

ـ علينا ان نفتش عن حارس المقبرة فانه سيأوينا ..

خاطبته المرأة الجميلة متأسية :

ـ ان في القبور وحشة يا « آرم » ولن يأتيني النوم فيها .

أجابها ، وهو ينظر داخل المقبرة :

ـ سننام مع الحارس .

ضرب « آرم » على الباب برفق . ثم طرق فلم يأت احد . وضرب الباب في آخر الامر بقوة فانفتح ....

دخلنا نجوب بين القبور بحثا عن الحارس ... ففتشناها

ولم نعثر عليه . وفي ركن من اركان المقبرة وجدنا بيت الحارس خاليا .

قال « آرم » :

ـ لا بد أن من عادته النزول الى « نهر الفرباء » في مثل هذا الوقت مع النازلين ، فلنمكث في بيته الى وقت مجيئه ..

جلس ثلاثتنا على ارض الغرفة الضيقة ذات الرائحة غير العادية . ولم يمض وقت طويل على وصولنا الى تلك الغرفة حتى سمعنا صياحا ونواحا ينصاعدان ، من المقبرة ، وسمعنا اصواتا كثيرة تهتف باسم « آرم » ... فخرجنا من البيت في ذعر ، وكانت رفيقتنا عندئذ مستغرقة في نوم عميق فلم تع ما نحن فيه ...

لما خرجنا من الغرفة رأينا الاموات هياكل عظمية قد قامت من القبور.. انهم يعدون في جوانب المقبرة ويصيحون ، بعضهم يبكي ، وبعضهم يندب ، وبعضهم الآخر يرمي الفضاء بالحجر .. لما رآنا الاموات في وقفتنا الذاهلة امام البيت الصغير توجهوا نحونا وفي أيديهم مشاعل من لهب حمراء ... ساروا نحونا صفا صفا يحمل الهيكلان الاولان من كل واحد حجرة عريضة من أحجار القبور، كتب على اللوحة الحجرية الاولى « ضحايا الفيتنام » .

لم يمكث صف الاموات الاول امامنا طويلا حتى تزحزحت الهياكل العظمية البيضاء ووقف مكانها صف آخر من الاموات يحمل لوحة حجرية ثانية كتب عليها « ضحايا كفر قاسم » . فتح الاموات أفواههم وضربوا أضراسهم بعضها ببعض ، فأحدثت طقطقة زادت في رعبنا وجمدتنا أكثر في مكاننا ....

وتسلل هذا الصف من الهياكل والعظام الخالية من اللحم تقرقع بعضها بعضا ، وودعنا أحد الهياكل وذلك بان رمانا بحفنة من تراب ...

أتى صف ثالث تتزاحم فيه الهياكل بالمناكب فيحدث احتكاك العظام البيضاء ببعضها صريرا شبيها بصرير الابواب . وقف هذا الصف وأطال الوقوف ... وألقى الاولون منه أمامنا لوحة حجرية كتب عليها بخط من نار « ضحايا روديسيا » . وضحك الاموات ضحكة عريضة تساقطت منها أسنانهم المرتعشة على الارض ...

كنا في موقف الذاهل الغائب عن وعيه عندما توالت علينا صفوف الاموات تحمل ألواحا كتبت عليها أسماء مختلفة من عالمنا الارضي ... وكأنما شدت اقدامنا الى الارض فلم نتحرك ولم نزعق رعبا ، بل بقينا ننظر الى الاحداث وهي تتوالى امامنا لا غير ...

ووقف هيكل طويل ضخم الجمجمة فوق قبر عال ، وتكلم بصوت مرتفع في جموع الهياكل الشاخصة اليه :

ـ الآن سنفدي الثار ...

وأشار بيده العظمية البيضاء الى « آرم » . وكان صوته قويا حتى المرأة الجميلة التي ترافقنا ، فهبت من مكانها . ولكنها جمدت في باب الغرفة عندما رأت جموع الاموات الكثيرة المحتشدة في شبه مظاهرة امام البيت .

أعاد الهيكل الطويل ذو الجمجمة الضخمة قوله :

ـ الآن سننتقم .

وأشار ثانية الى « آرم » . فاندفع عندئذ هيكل يبكي بكاء شبيها بعواء الذئاب ، وقال رافعا رأسه العظمي :

ـ انه بريء لا شأن لنا معه ...

جمد « آرم » في مكانه لا يتحرك ولا يتكلم . ولكنه ظل ينظر كل ذلك باهتمام يشوبه خوف عميق .

تكلم احد الهياكل الواقفة في حماس ، وخاطب الهيكل الباكي :

ـ أنا الذي كان علي أن أبكي لاني مت ظلما في احدى المجازر الارضية .

هيكل ثان :

ـ اما أنا فقد محت وجودي وعائلتي احدى القنابل الارضية .

هيكل ثالث :

ـ لقد مات أبنائي خنقا امامي ، فحاولت أفتكاكهم فذبحت .

وانطلقت الهياكل تشتكي الواحد تلو الآخر . ثم بدأوا ينوحون نواحا منكرا ، وأخذوا الحجر ولوحوا به للسماء ، ثم غمروا بأصابعهم العظمية الرمل ولوحوا به عن اليمين وعن الشمال .... فالتفتت الى زوجة « آرم » فالتقت عيناي بعينيها الذاهلتين ، فأجهشت بالبكاء ... عندئذ سقطت الهياكل العظمية كلها ارضا . ولم يبق في المقبرة حركة ولا ضجيج ولا رفس .. فنظر نحوي « آرم » في صمت . ثم أجال بصره حواليه في حزن ، وتأمل وجه زوجته فرأى سحنتها متغيرة ... فأمسكني من يدي وأشار عليها بالدخول فدخلت متعثرة ، ودخلنا على أثرها وأوصدنا الباب . لم يأتنا النوم الا قليلا . اذ كنا نشعر بوحشة النازل في مدينة الاموات، وقد زاد في شعورنا بالغربة السكون الذي يملأ أرجاء المقبرة بعد ان ملأتها أصوات الموتى ضجيجا واحتجاجا على قدومنا .

حدثني « آرم » أثناء الليل ، فهمس لي بأقوال لم أفهمها جيدا فقد كان يحدثني عن المصير المجهول ، وعن الحياة ، وعن الموت ووحشته . ويتمتم أحيانا أثناء حديثه كمن يداري سرا خطيرا لا يريد البوح به لغير نفسه ...

سألته وكان الليل ما يزال جاثما على المقبرة ـ عما يقلقه . أشار بيده الى المرأة الجميلة المستغرقة في النوم . قلت له في شبه ممازحة :

ـ ألا تحبها ؟؟

أجابني وهو يعاني احساسا ثقيلا :

ـ أفني فيها ...

قلت :

ـ لم كل هذا العناء ؟؟

قال :

ـ لقد تعبت وأتعبتنا معها ، لانها سلكت طريقا صعبا من البداية..

صمتنا في حزن ، وقد بدأت بوادر الفجر تطل علينا من شقوق الباب ، ومن كوة مخروطية الشكل شبيهة بالحجر ، ملتصقة في أحد جدران الغرفة ...

نهضنا لما عمت أنوار الصباح أرض الغرفة الضيقة . وقصد « آرم » المرأة الجميلة المستغرقة في النوم قربنا .. مسح على وجهها برفق مرتين ، ووضع يدها الصغيرتين في يده اليمنى بحنان، ففتحت عينين ناعستين كحلتا بالجمال .. ونهضت معنا في نشاط .. وعندما هممنا بالخروج كنا في اتجاه الكوة الملتصقة بالجدار الذي تقف بقربه المرأة الناظرة الى الاتجاه المعاكس ..

أبصرنا يدا ذات سبع أصابع ضخمة تدخل من الكوة وتمتد تجاه المرأة ... أسرعت عندئذ الى فتح الباب فعالجت قفله فلم يفتح وقد أخذت اليد تطول شيئا فشيئا ، تجاه المرأة فجذبها « آرم » نحوه في اشفاق حتى لا يخز جسمها الجميل بأظافر اليد الحديدية . عند ذلك انتبهت مرافقتنا للحقيقة فانزعجت وصاحت في ذعر ، فاتسعت أصابع اليد اكثر ، وازدادت اقترابا منها .

ضرب « آرم » اليد الكبيرة برجله علها تحجم عن الامتداد ، ولكنها اقتربت اكثر من المرأة . اما أنا فقد كثرت محاولاتي لفتح الباب بلا جدوى ، اذ كان كمن سمره بحديد من الخارج .

بدأت اليد تتضخم وتملأ جو الغرفة الضيقة ، فتوالت ضربات « آرم » لها بحذائه ... واقتربت أظافر اليد الحديدية من جسم المرأة لتنغرز فيه ، فعلا صياحها ، واضطرب « آرم » اكثر ، وفتش حزامه في سرعة من تذكر شيئا منسيا آن الاوان لاستعماله ، فأخرج من حزامه مدية شبيهة بمدية الجزار .

امسك مقبضها بقوة ، ووقف في السركن القريب من الكوة ورفعها حتى كاد أعلاها يصل السقف ، وضرب بها اليد الممدودة لخنق المرأة ، فقطعها من المعصم ، وسقطت على ارض الغرفة بيننا .... عند ذلك تبدل صياح المرأة الى بكاء . كانت تبكي وتنظر الينا

في حنان ، وقد علت وجهها صفرة خوف ، وتتابعت انفاسها اللاهثة، واصطرب صدرها الناهد في علو وهبوط ..

التفت اليّ « آرم » ونظر في وجهي وكأنه يسألني عما اذا كان الباب قد فتح أم انه ما يزال مقفلا . فاشرت بأن الباب موصد ، وان هناك احدا قد اوثقه من الخارج ليوقفنا في هذا المأزق . قصد الباب وحاول فتحه فلم يستطع ، فوقف مفكرا ووقفت أنا والمرأة ننظر اليه ... ثم اخرج المدية من حزامه وانحنى على اليد المقطوعة واشار عليّ بأن أنحني مثله عليها ، فسألته عن قصده فتمتم :

ـ لنستعمل اصابع الشر آلة لخلاصنا .

قال هذا ، وقطع أطول أصبع في اليد ، وأشار عليّ بأن أحفر بظفرها الحديدي اسفل الباب ، ثم قطع هو ايضا اصبعا أخرى وانحنى يحفر معي .

الصمت يلفنا ونحن نضرب الارض ، والمرأة الجميلة تنظر الينا حينا وحينا آخر تتأمل في دهشة أصابع اليد الغليظة التي كادت تقضي عليها . وعلت بشرة وجهها الصافية دهشة فرح عندما رأت النور يتدفق من أسفل الباب الموصد .

الثغرة التي فتحناها تمكننا من الخروج ... ولكن من يدري من أن أول خارج منا لا يصيبه الشر ؟؟

اشار عليّ « آرم » بأن أبدأ بالخروج فزحفت تحت الباب وخرجت بسهولة ، وخرجت على اثري رفيقتنا وتبعها « آرم »..

وقف ثلاثتنا خارج الغرفة الضيقة وقد شعرنا بفرحة الخروج من المأزق ... ولكن لم نلبث أن هز احساسنا صمت القبور ، وضباب ثقيل يغطي أرجاء المكان .. فسرنا ، ونحن نحس برهبة ، الى باب المقبرة الصغير لنخرج . وعلى حافتي الباب وجدنا هيكلين عظميين واقفين امتاز كلاهما بالطول وبمحجرين واسعين ، وأسنان بيضاء تضحك ضحكة الاموات لضباب المقبرة ، وقفنا قليلا نتأملها في دهشة، وتقدمنا نحو الباب في اضطراب وخوف ، فجذب كل هيكل طرف الباب الواقف حياله فانفتح ، وبعد اجتيازنا له انغلق من جديد ... وبانت لنا المقابر الاخرى جاثية بحزن على ذلك المكان .

مدينة الاموات التي قذفتنا حقيقة خلقتها نزوات من تعرفهم يا «آرم» عدد سكان القبور قد تضخم يا « آرم » . ضخمته نفوس وحشية نمت في مستنقع الاحقاد ، لقد شربت يا « آرم » مع من تعرفهم من مستنقع الكراهية والعالم لما يزل بعد طفلا .

لما شبعت انت ومن تعرف من ماء الاحقاد انقلبت براءة الطفولة في وجه العالم الى حب في الفتك ورغبة في الاذلال ...

اقدامنا تلتهم الطريق والصمت يلفنا ، وصورة الشيخ تطوف في أذهاننا ، اذ قطع على نفسه عهدا منذ أمس بأن يلاقينا على ضفة نهر الغرباء ... وحثثنا الخطى اكثر لما فضح النور الاشياء حتى لا يفوتنا الموعد ..

حصاد الرؤوس :

على ضفة « نهر الغرباء » كان الشيخ جالسا في انتظارنا وقد بدت عليه مهابة ، وشع من عينيه بريق جذاب اختلط فيه الايمان بالحب ، والحلم الكبير بالحكمة الرصينة .

لما وقفنا حياله قام وحيانا بابتسامة وديعة يحللها الوقار .

ونظر في وجوهنا مليا . ثم كلمنا سائلا :

ـ كنتم في مقبرة العهد الجديد ؟؟

اجبناه بايماءة حزينة . فاضاف قائلا :

ـ خشيت عليكم من الشر ، اذ نسيت أن أوصيكم مساء أمس بالابتعاد عن مقابر العهد الجديد ..

انتصب عندئذ الشيخ واقفا ، ولوح بنظره الى بعيد كمن يقرأ سرا في اعماق الغيب واشتغلت رفيقتنا بمضغ اوراق من « شجرة القوة » . أما أنا و « آرم » فقد شغلتنا لوحة كبيرة يدفعها الماء المتدافع من مصب النهر وفوقها شيء مضطرب لا يستقر .

اقتربت اللوحة فتبين لنا ان فوقها مجموعة من الافاعي في خصام عنيف ، وظهرت اكبر الافاعي حجما تضرب بذيلها وتعض بأنيابها البقية التي لم تنفك هي الاخرى تنهشها من كل جانب ...

ولما لم تستطع كبرى الافاعي ان تقاوم كما ينبغي وقفت على ذيلها فوق اللوحة ، وكأنها تحس انها بين أمرين : اما ان تقاوم الافاعي الاخرى حتى لا تموت نهشا وعضا ، واما ان ترمي بنفسها في النهر فتموت غرقا . وكأنما شعرت بهذا الخطر ففتحت فمها واسعا ، وأخذت تبتلع صويحباتها ابتلاعا ، فكنت ترى الافعى الصغيرة تقاوم. ولكنها تستسلم في النهاية . ومضت اللوحة يدفعها التيار وفوقها الافاعي في معركة طاحنة ....

همّ « آرم » بأن يسأل الشيخ عن معركة الافاعي ، وعن مقبرة العهد الجديد فنطق الشيخ قائلا قبل سؤاله :

سأسير معكم في نهاية الرحلة ، فلا تكثروا من السؤال عما ترون ، لانكم تطهرتم في « نهر الغرباء » ، وستعرفون وتفهمون كل شيء في هذا العالم بأنفسكم ...

قال هذا وسار امامنا في اتجاه يبعد قليلا عن مقابر العهد الجديد ..

تجلى الضباب الثقيل فبدت العين التي ينبع منها النهر واضحة بأهدابها السوداء الطويلة ، وظهرت جليا حيطان مقابر العهد الجديد. وأشرف الوقت على الضحى لما مررنا قرب المقابر التي غشيت حيطانها بطبقة من الطحالب الخضراء ، وعلقت عليها جماجم آدمية جديدة لم نرها في الصباح .

سرنا مع الشيخ الى مكان لا يبعد كثيرا عن المقابر . وفي غوط ذي تربة حمراء يحوي سهلا منبسطا رأينا انصاف عرايا في أيديهم آلات غريبة شبيهة بالمناجل ... أمامهم على ارض السهل رؤوس آدمية نامية كالفقاع فانحنوا يحصدونها من الرقاب ، وأثناء حصادهم تتساقط الدماء على الارض ، فتنتعش بها بقايا الرقاب ، فترتوي منها التربة ، فتنمو خلف الحاصدين رؤوس أخرى جديدة فيعودون على أعقابهم لحصدها من جديد ... ولذلك فهم في احجام واقدام على الدوام كلما تقدموا مسافة الا ورجعوا بعد زمن على أعقابهم فيها ، يطلبون أثناء ذلك الرؤوس الجديدة ويقطعونها من الاصل ، وكثيرا ما يقلقهم ما نما خلفهم من رؤوس ، فيفور غضبهم ، ويضربون الرؤوس المحصودة بعضها ببعض، فتتحطم الجماجم، وتتناثر العيون ، وتتكسر الاسنان ، فتتساقط تباعا على ارض الحقل الحمراء بالدماء المسكوبة .

أيدي حصدة الرؤوس ملطخة بالدماء ، وثيابهم وأجسامهم قد انغمست فيها .. فبدوا في عملهم هذا ذئابا تشرب الدماء شربا ، وتتمسح بها وتتلمظ وتنتظر تدفق شرايين جديدة لتروي غلها منها .

رأت رفيقتنا ذلك ففضت بصرها واحتمت بآرم وبكت في لوعة . ثم قالت بعد صمت :

ـ يا ليتني لم أتطهر بماء النهر حتى لا أعرف الحقيقة .

فاشار عليها الشيخ بأن تكف عن البكاء ، وان تنظر الى الاشياء في صمت ...

ثم مال بنا الشيخ الى ربوة ذات احجار بلورية وقال لنا :

ـ سأصنع لكم من أحجار هذه الربوة نظارات تضعونها فوق أعينكم ...

قلت له :

ـ نستطيع ان نبصر الاشياء بدونها .

وخاطبه « آرم » :

ـ لم يصبنا العمى بعد . فلنواصل الرحلة ...

وقالت له رفيقتنا بصوت رقيق :

ـ افعل ما شئت ، يا شيخ ، فنحن طوع امرك ...

تكلم عند ذلك الشيخ في هدوء الحكيم :

ـ انكم لستم عميانا ولكنكم لا تستطيعون معرفة جوهر الحقيقة، فبهذه النظارات تعرفون كل شيء في هذا العالم اكثر ...

ثم انحنى الشيخ وامسك بأحجار بلورية مفلطحة ، وحكها ببعضها فازدات تألقا وشفافية . ثم دوّرها حتى استوت في شكلها الدائري . ثم ناول كل واحد منا بلورتين ، ثم قال :

ـ ليحتفظ كل ببلورتيه الى وقت الحاجة .

ثم أنطلق يحدثنا عن أشيا كثيرة وهو يسير امامنا في طريق ذات احجار مدببة اشرفت بنا على مقابر أخرى كثيرة ومتقاربة ، ووسطها ساحة واسعة خالية من القبور ، كتب على لوحة حجرية في مدخلها بخط اسود قاتم « حمام الزعماء » .

في الساحة الواسعة ناس كثيرون يستحمون في برك من الدماء ... ولما لم نتبين الاشخاص جيدا وضعنا النظارات على أعيننا ، فبان لنا من جملة المستحمين زعماء نعرفهم جيدا . كان من بينهم « نيرون » و « جنكيز » . بدا كلاهما غارقا الى الرقبة في بركة من الدماء . ولما عرفهما « آرم » صاح فرحا فلم يشتغل به احد منهما ، لانهما كانا يأمران وينهيان جماعة من حصدة الرؤوس كانوا يجرون لهم الدماء في أوان ليست بالقرب ولا بالجرار ولا بالاقماع الكبيرة ، وانما هي شيء من هذا القبيل كله .

كان « جنكيز » قد أخذته نشوة السباحة في بركة الدماء،فشرع يغرف الدماء بحفنته ويزرعها عن اليمين وعن الشمال ، ويسقي بها الارض من الامام ومن الخلف .

وأعجبت « نيرون » اللعبة فضحك ضحكة عريضة وشرع بدوره يغرف الدماء بحفنته ويزرعها على الارض ...

وكلما أشرف الدم في احدى البركتين على النضوب ، قدمت ثلة جديدة من حصدة الرؤوس ، يحمل أفرادها أواني مملوءة بالدماء الجديدة ، فيفرغونها في البرك لتمتليء ، ثم ينثنون على أعقابهم للاتيان بدماء أخرى ....

وعلى بعد خطوات من « نيرون » و « جنكيز » وقف الشيخ « هوشي‌منه » بلحيته الطويلة وخياله القصير ، وفي عينيه نظرة شاردة ، ومن وجهه المفضن يطل ألم عميق وحزن أسود ، فيصفق بيديه من حين لآخر في أسف ، وقد تأخذه أحيانا غمرة الحزن فينحني ليأخذ حفنة من التراب ليذروها فوق الدماء المزروعة .

وفي اسفل المقابر قصر عال اخبرنا الشيخ بانه « قصر الجماجم »..

...وهو مبني على عدة طوابق . أحجاره من الجماجم الآدمية .... وابوابه من جلود بشرية ايبسها حرّ السنين .

فوق قمة قصر الجماجم رجلان قويان يظهران انهما يجلدان رجلا ثالثا . وقفنا نتثبت فيهم مليا ، وقفز « آرم » بسرعة والتفت الى الشيخ وسأله في عجل :

ـ من هذان اللذان يجلدان « الهر » ؟

وضع الشيخ سبابته على شفتيه ، واشار عليه بالسكوت ... بينما تعالى صياح « الهر » من الالم . واشتد ضرب قدميه على قمة قصر الجماجم . وألح الرجلان في ضربه بالتناوب ، وكلما ازداد الجلد ازداد صياحه ، وكثرت حركات شاربه المربع الجاثم تحت أنفه الطويل ، وزاد تلويحا بذراعيه . وقد خبت حدة نظراته فلم يبق في عينيه ذلك البريق القوي المزعج ، ولا في صوته تلك الحدة المخيفة ..

مرّ ناس كثيرون في تلك الساحة يحملون جثثا ملفوفة في أثواب حمراء ... كانت الجثث كلها تبكي . اما الذين يحملونها فقد كان الصمت يلفهم وهم يسيرون في صف متتابعين . فلا يسمع الا وقع أقدامهم على ارض صلبة قاسية .

راقبتهم عن بعد ـ بينما « آرم » ومرافقتنا والشيخ يتأملون مما يجري في الساحة ـ وقد وقف أول الصف بعيدا عن تلك الساحة خيال « يد كبيرة مقطوعة في الخلاء » انغرس معصمها في الارض ، ودار دورانا عاديا كأن شيئا ما يحركه من أسفل ، بينما أصابع اليد مشرعة في الفضاء ... ووسط كفّ اليد العظمية توضع الجثث بأكفانها ... ولما انصرف حملة الجثث وغابوا خلف حيطان المقابر قدم ثلاثة رجال يعدون تجاه اليد المقطوعة بلا رؤوس ، اذ كانت رؤوسهم تجري امامهم تلقائيا ، وتتصادم ببعضها كالاكر . وعلى مقربة من اليد المقطوعة ، الدائرة باستمرار والتي بدأت أصابعها العملاقة تطحن الجثث ، سقط الرجال الثلاثة ذوو الرؤوس الهاربة بلا حراك ... ويقابل اليد المقطوعة في الخلاء من الناحية الشرقية جموع كثيرة كل جمع يلتف بقائد يخطب فيه ، فيقول كلاما لا نفهم له معنى. ثم على اثر الكلام الكثير يحملونه على الاعناق ، فتمتد الايدي جميعها في وقت واحد . عندئذ يلقي أحد الاشخاص من نافذة من نوافذ قصر الجماجم آنية ملأى باللهب وسط الجمع الهاتف بحياة القائد ، فتشتعل في الناس النار بشدة ، وكلما أمعنت النار في الالتهاب أمعنت الايدي في الامتداد الى أعلى لتبعد عظيم القوم عن اللهب . وتستمر النار مشتعلة في اجساد الناس وقتا ليس بالقصير ، فلا يتضورون الا بمقدار ، ولا يصيحون الا بمقدار ، وهمهم هو حياة عظيمهم . ثم تهدأ النيران فاذا الجمع كتلة واحدة من اللحم منصهرة ، يقف فوقها ذلك الرجل سليما ورجلاه منغمستان فيها . ثم يتبدد الدخان فتتحرك كتلة اللحم الكبيرة ويبدأ حجمها يتسرب داخل جسم الرجل الواقف فوقها عن طريق رجليه ، فتتضخم رجلاه ، وتطول قامته ويعرض جسمه . ولم يمض وقت طويل الاوكتلة اللحم قد تشكلت كلها في جسم الرجل لحما سويا ، فينقلب الرجل الصغير الحجم بين ساعة وساعة عملاقا ذا ايد طويلة تصل فوق الكواكب ، وذا عينين ثاقبتين في باطن الارض ...

عند ذاك يبقى واقفا وحده في الساحة ورجلاه القويتان تدكان سطحها ، ورأسه الذي ضخمته قوى الناس ينظر في النجوم ...

وفي ناحية أخرى ، جنوب قصر الجماجم ، كان هناك رجال آخرون قد ربطوا جموعا غفيرة من رقابها بسلاسل معقودة في أوتاد حديدية جمعت بين الطول والغلظة وانتصب كل رجل على جمع من الجموع جلادا ، وكلما أمعن في الضرب أمعنوا هم في السكوت ، وكلما لوعتهم سياط هتفوا بحياته . عند ذلك يطلق رقابهم من السلاسل فيندفعون للسير حثيثا في طريق طويلة تمتد على طول « نهر الغرباء » ... ولكن المسك بالسوط يقف امامهم في الطريق فيجلد السابقين منهم ، فيعودون على أعقابهم ويشرعون في دورة حول انفسهم ، ويقف صاحب السوط وسطهم ويدور معهم حول نفسه ... ويحاول الجمع أثناء ذلك ان يسير سيرا دائريا ولو قليلا على الطريق ، ولكنهم لا يستطيعون ولا يتقدمون خطوة من مكانهم ...

المرأة الجميلة تنظر في استغراب وقد كادت تأكل انامله عجبا ... وقد بث في قلبها دواعي الالم استمرار « الهر » في الصياح . والذين يلقون النار من نوافذ قصر الجماجم يلهبون الناس حرائق..

اما حصدة الرؤوس فهم مستمرون دائبون في نقل الدماء الى البرك .

ومن وجه « آرم » وملامح الشيخ الكئيبة تطل أحزان ملايين السنين المخزونة في محفظة الزمان .

غرفة الاحلام الارضية :

قال لنا الشيخ ، وهو ينظر الى طريق امامنا :

ـ سنسير في هذا السبيل الممتد على طول « نهر الغرباء » ، وسيحلق بنا ناس كثيرون يسيرون بسرعة لا يلوون على شيء ، لكن قبل التوغل في الطريق سنستقل « غرفة الاحلام الارضية » لنواصل على متنها الرحلة . وعندما نصل المصب سنمسك ناصية العالم ...

قلت في استفهام :

ـ هل سننام ليلتنا المقبلة فيها ؟؟

وعلق « آرم » في حزن :

ـ أخشى ان تكون ليلتنا المقبلة شبيهة بالتي قضيناها في « مقبرة العهد الجديد » .

قالت عندئذ رفيقتنا :

ـ لنأخذ اذن طريقا آخر اذا كان هذا الذي سيكون ..

أجابني الشيخ بصوت رصين :

ـ « غرفة الاحلام الارضية » هي غرفة صنعتها من شجر الرجاء ... صنعتها بيتا كبيرا فوفرت فيه للاجيال كل اسباب الراحة والدعة ... وهذا البيت متنقل نجره ذئاب كبيرة كالاحصنة ، عاشت في غابة البؤس ، وتربت على أكل الرؤوس المعلقة في اشجارها ، وشبت على لعق الدماء المقطرة من الرقاب .

قال له « آرم » :

ـ نحن نخشى أن تأكلنا الذئاب .

أجابه الشيخ ، وهو ينظر الينا :

ـ أنا الذي سأتولى أمر الذئاب التي تجر المركب ، لانها ألفتني من قديم . اما أنتم فحالما تصلون الغرفة فادخلوها وكلوا من الخيرات المعلقة فيها ، واستريحوا على البسط المفروشة في أرجائها . لان الطريق طويل محفوف بالمخاطر ، ورحلتنا شاقة من الصعب ان تنتهي وأنتم تسيرون هذا السير البطيء على الاقدام .

فلت للشيخ :

ـ ان الغرفة التي تقودها الذئاب من الصعب سكناها .

قال لي في لهجة المطمئن :

ـ أنا خبير بشؤون الذئاب وتسييرها في الطريق .

كنا نسير الاربعة الواحد خلف الآخر ، لان الطريق ضيق . وكنا بين صمت وصمت نتحدث عن مقبرة العهد الجديد ، وبرك الدماء ، وقصر الجماجم ، وصياح « الهر » وحصدة الرؤوس ... فنذكر ذلك فيما بيننا في خوف . أما الشيخ فكان يسير امامنا في صمت . واذا سألناه عن حدث يجد لنا في الطريق فانه يكتفي بان يشير الينا بالايجاب أو السلب أو يلازم السكوت .

بعد مسيرة دامت طويلا وصلنا الغرفة المنتظرة . ولما هممنا بالاقتراب منها أشار علينا الشيخ بأن نقف على بعد منها .

بدت لنا الغرفة بشكلها الكروي مستقرة على شبه عجلات يظهر أنها من مفاصل آدمية وربط في الغرفة من الامام خمسة ذئاب كالاحصنة في الكبر .

كشرت الذئاب عن أنيابها في البداية لما رأتنا نهم بالاقتراب من « غرفة الاحلام الارضية » .

يحيط بالغرفة والذئاب الخمسة المشدودة بأغلال الى الغرفة نفسها شبه دائرة من الاشجار ، في كل شجرة ذئب مربوط بسلسلة طويلة تمكنه من اقتحام الغرفة متى شاء .

تقدم الشيخ نحو الخمسة ذئاب بينما وقفنا نحن ننظر له من بعيد ... نزع ثوبا من أثوابه ، ووضعه مرة على أنف كل ذئب ، ثم أعاده الى مكانه . ثم أشار « أن تقدموا » . سبقنا عندئذ وفتح بابا صغيرا في الغرفة الكروية . دخلناها . كانت من الداخل مربعة الشكل ، واسعة ، يمتد في أرجائها البصر . ودخل على أثرنا الشيخ فوقف ينظر في أنحائها قليلا . ثم التفت نحونا وقال :

ـ هنا نستطيعون اتمام الرحلة ، ومن خلال نوافذ هذه الغرفة ستنظرون احداث العالم وأنتم في الطريق .

قال هذا وهم بالخروج فاستوقفته مرافقتنا بصوتها المتضرع . قالت له بحزن :

ـ اياك ان تفارقنا ، يا شيخ ، فيدونك سنضيع !

قال في اصرار :

ـ سأمكث معكم الى النهاية .. اما الان فسأجلس خارج المركبة كي اسير الذئاب في الطريق ، لانني اذا تركتها حرة فستتخلى عن الطريق وتسير بالمركبة الى غابة البؤس ، حيث شبت وتعودت لعق الدماء وأكل الرؤوس .

قال هذا وخرج بعد ان أوصد الباب الصغير على أثره باحكام .

لقد احسسنا بالجوع لاننا لم نأكل منذ يومين ، اذ شغلتنا حالنا ومخاطر الطريق عن الاكل . وقد أثار فينا شهية الطعام ما رأيناه في الغرفة من أنواع الثمار الطيبة الرائحة الذكية الطيب ، المعلقة في سلاسل مخروطية الشكل ، مدورة كالاكواب . وأثار فينا حاسة العطش ما رأيناه من أباريق البلور المملوء ماء سلسبيلا ...

« فام » « آرم » الى سلة مملوءة فاكهة ، وكان مختوما عليها بغلاف شفاف رقيق يبدو من ورائه نوع من الثمار ليس هو بالتين ولا بالاجاص الارضي . انما هو نوع من الثمر بين هذا وذاك أحمر اللون ، نشوبه صفرة خفيفة ، حلو المذاق ، فيه لذة لم نعهدها في ثمارنا الارضية .

أكلنا من هذه الثمار حتى شبعنا ، وشربنا حتى ارتوينا . وكان عندئذ المركب الذي تولى قيادته الشيخ قد بدأ يتحرك على طريق مفروشة بالحصباء ...

قال « آرم » وقد سرّح نظره خارج الغرفة من خلال احدى النوافذ :

ـ اننا نخشى أن يصيب الشيخ مكروه من الذئاب ، فلو يصيبه سوء لازددنا ضياعا .

أجابته المرأة الجميلة :

ـ ان الشيخ قد روّض ذئاب المركبة منذ القدم ، وقد عرفت ذلك منذ الطفولة .

قلت مماذحا :

ـ تنادونه بالشيخ وهو يحمل ملامح الشباب وقوته .

علق « آرم » على هذا قائلا :

ـ لكن أغرب ما في الشيخ امتزاج الشيخوخة بالشباب في ذاته . والحقيقة انه لو لم يعترض سبيلنا منذ البداية لكنا من الهالكين ، لان معرفته لهذا العالم قد اقترنت بوجوده .. ووجوده قد ضمن وجودنا ...

قلت في ابتهاج :

ـ الآن ستتم الرحلة بلا مشقة ، ففي « غرفة الاحلام الارضية » من الخيرات ما يغرينا بالمقام ويقينا من الخصاصة في الطريق .

اجابني وقد اثار كلامي شجونه :

ـ يجب أن تعرف اننا في ضياع ، وان مصب النهر الذي نقصده من الصعب الوصول اليه ... ولذلك علينا ان نحث السير علنا نظفر بالوصول ...

من اليسار يحفنا « نهر الغرباء » الذي يجري حثيثا دافعا امواجا متلاحقة منحدرة نحو مصب لا نعرف منتهاه وتحف بضفة النهر أشجار طويلة ليست بالسرو ، وليست بالنخيل ، انما هي نوع يجمع بين هذا وذاك ، فيها ثمار وجدنا بعضها في سلة من سلال غرفتنا... وعلى ضفة النهر نمت حشائش صغيرة تفرقت فيها سلاحف ذات آذان طويلة شبيهة باذان الارانب تقضم براعمها ، وعن يمين الطريق صحراء قاحلة لا نبت فيها ، يختلف فيها بعض نفر متفرقين في اتجاهات مختلفة .

فتح الشيخ نافذة المركب من الخارج ، وأطل علينا بوجهه المهيب بعد أن جلد الذئاب بقوة حتى أعواها ... قال :

ـ نحن الآن قريبون من « صحراء الجياع » ، عندما نصلها سننزل لنستريح بقية اليوم ، ونرى « بئر المطامع » ثم نجتاز « بئر المطامع » ببضع مسافات لنشاهد « مصيدة السراق » ...

قال هذا وأغلق النافذة من جديد . وتلهينا نحن بالنظر الى الصحراء والى الذين يسيرون فيها . انهم مختلفون في الاتجاه ، ومختلفون في الطرق ، ومختلفون في الهيأة . وهم يزورون عن بعضهم بعضا ، فاذا التقى أحدهم بالآخر في طريق ما من الطرق ، تنكب عنه ، وأخذ اتجاها جديدا . وكانت تبدو على ملامحهم أحقاد دفينة وكبرياء مزيفة . وقد يبعد النفر الابيض عن النفر الاسود أو الاصفر عن الاحمر بمسيرة أقدام عديدة ، لانه يكره فيه ذلك اللون ، ويكره منه ذلك الطريق وذلك الاتجاه الذي يسلكه .

توقف المركب عندما أبصرنا جموعا غفيرة تبدو وكأنها هائمة في شبه سهل منبسط ، لا تستقر في مكان ، ولا تهدف الى شيء من

سعيها .

فتح الشيخ نافذة المركب من الخارج ، وأطل علينا من جديد بوجه أكثر مهابة ، ثم أشار علينا : « أن أخرجوا .. »

نزلنا فبانت لنا الجموع الهائمة بوضوح . كانوا يهيمون في تلك الصحراء على وجوههم ... منهم الممسك رأسه بيديه ملتفتا ذات اليمين وذات الشمال في لهف ... ومنهم الواضع يديه على قلبه وهو يتألم . ومنهم الممسك بطنه بقبضتيه منطلقا في ركض متواصل ، صائحا صياحا منكرا .

اما الذي اثار دهشتنا فهم اولئك الغارقون في شبه حفر يملأها الطين الى الاعناق ، الناظرون بأبصار ذاهلة نطل منها الغيبوبة ، والمطلون بوجوه متغيرة السحن تلهبها سياط خفية قاتلة . فهم لا يعون بمن حولهم ، ولا يدرون بما يجري في ذلك المكان .

وعلى بعد خطوات رأت معشوقة « آرم » رجلا غارقا في الطين الى أذنيه وقد بدأ الطين يتسرب الى فمه ليخنق أنفاسه ، فأسرعت بقلب عطوف لانقاذه ، وهمت بالانحناء لانتشاله من هوّته ، فزجرها الشيخ بنظرة قاسية . ثم قال بعد فترة قصيرة من الصمت :

ـ من يبدد أحلام الارض ويلاحق الاحياء والاموات خير له ان يسكن الطين .

والتفت الشيخ تجاه الخلاء وسار أمامنا متوغلا في صحراء الجياع ، مخترقا جموعا هائمة على وجهها بين الحين والحين . لم نبتعد كثيرا عن المكان الذي كنا فيه حتى وقف الشيخ على بئر ذات حوض كبير ، تحيط بها طحالب طافية فوق ماء أخضر آسن ، يخرج من عين كبيرة في جانبها . ووسط الماء الآسن نمت شجرة كبيرة لا ظل فيها ، ذات ثمار مرة كالحنظل ، وقد غطيت اعوادها بأشواك طويلة كالابر . وفي الناحية الاخرى من البئر بالوعة أرضية ينحدر فيها ماء العين بشكل دائري تسمع له فرفرة شبيهة بحشرجة الاموات.

لم يطل بنا الوقوف كثيرا حتى قدمت ثلتان من الجموع التي تركناها خلفنا في الصحراء . اقترب الجمعان منا . كان بعضهم من أولئك الذين يصيحون واضعين أيديهم على بطونهم ، اما الثلة الثانية فهي من الذين تركناهم غارقين في الطين .

ازدادوا اقترابا وهم يركضون في اتجاه البئر ، وبسرعة خاطفة داروا حول الماء الآسن ، وانحنوا فوقه يكرعون متزاحمين بالمناكب ، متدافعين بالايدي ، متناطحين بالرؤوس .

اهتز « آرم » لذلك اهتزازا ، واحمرّ وجهه ، وامسك بحفنة من الرمل ليرميها في الهواء حتى يصيبهم الرمل في أعينهم . ولكن الشيخ أسرع اليه ، وأمسك بيده ، ونفض الرمل منها .

ثم بعد أن شبع الجمعان ماء آسنا أكلوا من الثمار المرة بنهم ، ونظر أحدهم الى صحراء الجياع وانطلق يعدو متوغلا فيها ، فتبعته البقية حتى غاب الكل عن أنظارنا .

عند ذلك تقدمنا الشيخ وسار هو أيضا متوغلا في الصحراء ، ولكن في اتجاه جديد ...

سرنا مسافة ليست بالقصيرة ، فسمعنا ونحن نشرف على غوط رملي صياحا ، ورأينا حركة حثيثة وابتعادا واقترابا بين أنفار كثيرين ... ولما نزلنا في الغوط شاهدنا مصيدة عظيمة طولها مسيرة أقدام . فهي شبيهة بالفخ ذات طرفين حديديين قويين يسدهما من الجانبين لولبان عظيمان . قال لنا الشيخ وهو يشير اليها بسبابته :

ـ هذه « مصيدة السراق » يعصر فيها من سرق الشعوب .

اردنا ان نستفسره في شأنها اكثر فابتعد عنا مشتغلا ببعض شأنه .

في فم المصيدة ناس كثيرون يصيحون ، اذ كانت قابضة على بطونهم ، فظهرت وجوههم محمرة وبرزت ارجلهم الى الخلف ، وكان هناك رجال شداد أقوياء يجلدونهم بعصي من حديد جلدا قويا ثم يديرونهم على ظهورهم بحيث تبقى بطونهم بارزة الى اعلى ممسوكة بغم المصيدة . ثم يشعلون النار فوق بطونهم فيصيحون صيحة واحدة.

« لم نسرق !!! »

يأخذ عند ذلك الرجال الاقوياء شهابا من نار ويمسكون ألسنتهم ويكوونها كيا وئيدا ، فيصيحون صيحة ثانية قوية نطقا بعدها أنفاسهم .

يخرج الرجال الاقوياء هؤلاء السراق النكرة من فم المصيدة وقد فضي عليهم ، ثم يأتون بجماعة أخرى لها لون جديد ، ورداء مخالف للجماعة الاولى ، فيطبقون عليهم في المصيدة ، فينكرون كما أنكر الاولون ، فيعيدون عندئذ كيّ ألسنتهم واشعال النار فوق بطونهم ، فيخرجون من المصيدة ميتين .

تكررت هذه الاحداث أمامنا حتى غطيت ارض الغوط بمن مات من السراق ، الذين طالت ألسنتهم ، وانتفخت بطونهم ، وخرج دمهم من مناخرهم نسكابا .

قالت رفيقتنا ، وهي تمسك بيد « آرم » :

ـ لقد سئمت هذه الصور التي أرعبني ... ان هذا العالم يا « آرم » هو عالم الرعب ..

ربت « آرم » على كتفيها في حنان وتكلم وكأنه يحدث نفسه :

ـ لنسر على الاشواك في صمت .

في صحراء الجياع وقرب بئر المطامع سرنا نبحث عن أنفسنا وسط الطين وبين ضجيج الالم والرغبة ، وعلى أرواحنا تكدست أوضار آلاف السنين ، وفي قرارة قلوبنا ترسبت أوحال كثيرة منذ البدء ....

لقد كنا نتحاشى الغرق في الطين عندما كنا راجعين الى المركب ولكن على الرغم منا يسقط احيانا أحدنا وسط حفرة طينية نخرجه منها بصعوبة .

بلغنا « غرفة الاحلام الارضية » وقد أدمت أرجلنا أحجار صغيرة مسننة منتشرة في الصحراء .

لما بلغنا مكان المركب وجدنا أن الذئاب الخمسة قد أكلته الاربعة الباقية ، لانها كانت جائعة ، اذ نسي الشيخ ان يطعمها .

ضرب الشيخ ناصيته لما رأى ذلك ، واستغرق في تفكير عميق كمن يسترجع ذكريات بعيدة ثم نظر حواليه وتكلم ، واليأس يخالط صوته :

ـ ان مسيرتنا الآن ستستغرق وقتا طويلا في الطريق .

قال « آرم » :

ـ لنأخذ عوضه ذئبا آخر من هذه الذئاب المربوطة في الاغلال .

قال الشيخ :

ـ صعب ان نروضه من جديد .. لقد روضت هذه الذئاب عندما كانت صغيرة .

أبعدنا جثة الذئب المأكول ، ثم خطونا ببطء ودخلنا الغرفة بينما بقي الشيخ يحرسها من الخارج .

لم نأكل تلك الليلة الا قليلا، وقد كان حديثنا همسا، واستغرق « آرم » وزوجته في نوم تقطعه الاحلام المزعجة . اما انا فلم يطف بي النوم تلك الليلة ، اذ كنت احس بقلق يؤرقني ويضيق أنفاسي، شعرت بدبيب في جسمي يشبه دبيب النمل ورغبت في الخروج من الغرفة ...

فتحت بابها الصغير ببطء حتى لا اوقظ الرفاق ... وعندما وضعت قدميّ على أعتابها وجدت الشيخ نائما أمامها . لم يكن هناك ظلام . وانما هناك ضوء رقيق يلوح من الشرق ، فتبدو تحته خيالات بعض الاشجار سوداء كأعمدة دخان لمعامل أرضية . وظهر وجه الصحراء عن اليمين متشحا بثقاب حزين .

خرجت في تلك الليلة بمفردي ، فساورني الخوف . ولكن لم البث أن غمرني فرحة الانطلاق .

وعلى ضفاف « نهر الغرباء » حيث يعدو التيار وتندفع الامواج لتنصب في اللانهاية ، سرت وحيدا ، وشيء خفيّ يجتذبني الى الامام . وقد وخزتني شوكة حادة نامية على ضفته فادميتني . حاولت ان اضمد جرحي ، ولكن لم أجد شيئا يسد فوهة الجرح ،

فسرت ودمائي تقطر على الرمل .

وسمعت على بعد مسافة أمامي صخبا رقيقا يهزّ سكون الليل، ويبعث في حناياه موسيقى لذيذة مطربة ، وارتفعت زغرده حتى نشبه رجع ناي بعيد ... واقتربت أكثر من مأتى الصوت فرأيت على الضفة خيالات غير واضحة تتقارب وتتباعد ... اقتربت في حذر يدفعني حبّ الاكتشاف والمغامرة ، فلاح لي جمع من الفتيات يلعبن على ضفة « نهر الفرباء » وينسامرن غير عابئات بتيارة المتدفق وأمواجه المتدافعه ... وقفت بعيداً عنهن بقليل ، ولما رأيتني كففن عن الضحك ، وانضم بعضهن الى بعض ، ومكثت كل منا ينظر الى الآخر. وفي لمح البصر اندفعت احداهن نحوي وكأنما كانت تعرفني من قبل ، واقتربت مني في احتشام ، ووقفت أمامي ، وابتسمت ابتسامه ألفتها طويلا ، ودون أن تتكلمني أخذت يدي برفق ، وهزت فيّ عينين ناعستين أترعتا بالاحلام الحزينة ، وقالت بصوت موسيقي :

ـ كيف عرفت هذا المكان ؟

قلت لها :

ـ لقد صحت ...

قالت :

ـ كنت يائسة من رؤياك ، ولكن ها أنت ذا أمامي ..

وأومأت الى رفيقاتها ـ اللاتي كن يتطلعن اليها ـ بالذهاب فرجعن الى ما كنّ فيه من لعب ومرح ..

وحانت منها التفاتة الى الارض فرأت ان قدميّ تقطر منهما الدماء .. فنظرت اليّ بعينيها السوداوين نظرة لوم ، ثم جثت على ركبتها يدفعها الحنان ، ومدت يديها الى ثوب من ثيابها فنزعته وضمدت به جرحي ... ثم مدت يدها الى جبيني لتمسح عنه قطرات تساقطت عليه من ندى الليل... ثم رمقتني ثانية بعينيها العسليتين، وتحسست جسمي ببصرها كما عهدتها من قبل .. وكانت تغشي وجهها الجميل غيمة حزن رقيقة . وعلى شعرها الناعم المهدل على كتفيها بعض الورود الغابية . كانت تبتسم بهم بلجي وتمرغ رأسها بين ذراعيّ ...

سألتها عما اذا كان هناك ماء لاطفيء به ظمئي الذي لا ينتهي . فاشارت بيدها الصغيرة الى مياه « نهر الغرباء » ... قلت لها :

ـ انها دموع ...

فقالت :

ـ من ادراك ؟؟

قلت :

ـ لقد وقفت على نبع النهر بنفسي .

فكرت قليلا .. ثم أخذت يدي برفق وقالت :

ـ هيا نذهب الى « نبع المحبة » لاسقيك منه .

قلت لها :

ـ لقد شربت ماء كثيرا ولم يطفيء ظمئي ولربما ...

قالت مقاطعة :

ـ عندما تشرب هذا الماء ستحس أنك في حياة راضية ، وان العوالم كلها قد تسربت بين ضلوعك .

قلت في ريبة :

ـ اخشى أن لا يكون هذا ، لانني حاولت أن أفتح عينيّ للشمس فاغلقتا بلا ارادة .

قالت :

ـ هيا لنجرّب .

سارت امامي في ثوبها الابيض الجميل ، وسلكت بي مسالك سهلة وصلنا بعدها الى جبل صغير في سفحه نبع ماء صاف . وحول النبع ناس كثيرون يرتدون ثيابا بيضاء يكرعون من ماء النهر الواحد بعد الآخر في رصانة وهدوء .. وقد علت وجوههم علائم المسرّة ، وانطلقت من عيونهم ـ رجالا ونساء ـ أشعة الامل والحنان ... فهم يجذبونك بلطفهم ، ويأسرون قلبك بتسامحهم ، فتشعر كلما حدثتهم كأنك تخلق خلقا جديدا ...

لما هممت بأن اشرب من « نبع المحبه » ابتعدوا عن النبع قليلا ليتركوا لنا المكان .

أحببت الشرب من ماء النبع العذب ، فنهلت منه حتى سبعت بينما كانت رفيقتي واقفه في انتظاري . ولما أطفأت ظمأي بماء المحبه اقتربت مني ، وأخذت حفنه ماء ، ومسحت وجهي بيديها الصغيرتين، ثم انحنت نحوي ، وهمست في اذنيّ :

ـ ادع من جاء معك في هذه الرحله ليشربوا من ماء النبع .

قلت لها ، ونحن راجعون في الطريق :

ـ لقد تعوّد الناس شرب الماء من بئر المطامع ولذلك فهم لا يستطيعون شرب ماء المحبة ..

قالت لي :

ـ لم لا تأخذ معك الزاد من ماء النبع ؟

ـ أجبتها :

ـ ان ما شربته الآن يكفيني الى آخر الرحلة .

وصلنا الى المكان الذي كنا جالسين فيه قبل الذهاب الى النبع فحادثتها قليلا . ثم وضعت يديها بين يديّ برفق وقلت لها :

ـ الآن سأذهب .

قالت في اشفاق :

ـ الى أين ؟؟

قلت :

ـ لأواصل السفر

قالت :

ـ متى تلتقي ؟

أجبتها :

ـ عندما أتم رحلتي هذه .

قالت في استفهام :

ـ وهل أنت أتيت في رحلة ؟

قلت :

ـ رحلة طويله تحفها المخاوف .

قالت في لجاجة :

ـ ومتى ستعود ؟؟

قلت :

ـ عندما أصل مصب النهر .

أجابتني وفي صوتها ضراعة واستعطاف .

ـ ألا تمكث معي وقت آخر ؟؟

أجبتها باشارة تنفي المكوث. ثم أمسكت يديها الصغيرتين ونظرت مليا في عينيها السوداوين فرأيتهما قد ملئتا دموعا ، وغشيت وجهها الجميل غيمه حزن ثانية زادت في حسنها . قلت لها وقد وضعت يدها البيضاء في شفتيّ :

ـ ان الرحلة طويلة عليّ اتمامها ، والطريق مملوء بالمخاطر عليّ ان اتخطاها ، واذا رجعت سألما من رحلتي فسأجتمع بك خارج الزمن على ضفة هذا النهر ! .

انهلت دموعها غزيرة على وجنتيها . وهممت بأن ترافقني فأبيت . وسرت مبتعدا عنها ، فكانت تلاحقني بنظراتها حتى توارت. عند ذلك رأيتها دون أن تبصرني راجعة الى صويحباتها اللائي ما زلن في صخب وضجيج .

في طريقي الى «غرفة الاحلام الارضية» ابتعدت عن الشوكة المسننة الضخمة الحجم حتى لا تخزني من جديد . ولما بلغت لم أجد الذئب الرابع بل وجدت ثلاثة ذئاب فقط . والتفت الى حيث ينام الشيخ فوجدت المكان فارغا ... طفقت أبحث في ساحة المركب عليّ أجد الشيخ نائما قريبا ، فعثرت على جثة الذئب الثالث ملقاة في

ناحية بعيدة عن المركب .

فلت فيما بيني وبين نفسي « لعل الشيخ يبحث هو أيضاً عن الذئب » ودخلت بين الاشجار المحيطة بـ « غرفة الاحلام الارضية » منحذرا من الذئاب الاخرى المربوطة في سلاسل كي لا تسطو عليّ . وفي عانق كبير من شجرة هرمة رأيت شيئا معلقا . اقتربت من الشيء المعلق فلاحّ لي بياضه . ازددت اقترابا فاذا بي أقف امام الشيخ وهو معلق في الهواء . وقد سال من أنفه دم أحمر على لحيته البيضاء... اكتنفني الحيرة وحزنت . وتساءلت عمن شنق الشيخ . ولكن الذي ظننته هو أن الشيخ قد شنق نفسه ، اذ وجدت رباط حزامه في رقبته .

صعوبة الطريق ومخاطر الرحلة ستزداد ، واحتمال التعمق في الضياع سيكون ممكن الوقوع .. مركبنا سيقف لان قوته الجاذبة قد انهارت . والاشواك والاحجار ستدمي اقدام القافلة من جديد ... علينا الآن أن نسير راجلين مرة أخرى . وبسرعة فتحت باب الغرفة الصغير ، ودخلت لاوقظ « آرم » وزوجته . أخبرت « آرم » بأن الذئب الرابع قد مات ، وأن الشيخ الذي يقود المركبة قد انتحر .

ضرب « آرم » ناصيته ، وصاحت زوجته في حيرة من انسدت أمامه سبل الخلاص . وبعد فترة قال « آرم » بصوت الداخل لمستنقع اليأس :

ـ الآن سنعود من جديد الى وعث الطريق .

ونهض « آرم » بهمة قوية . وخرج من الباب الصغير والفجر لما يلج بعد . وقدته الى حيث كان الشيخ مشنوقا متأرجحا في الهواء ورجلاه تتدليان الى أسفل . لم نستطع ان ننزله من مشنقه ، لان رباط حزامه الذي اختنق به كان قد دخل في اللحم ووصل عظام الرقبة . وخشينا أن نحن أنزلنا الشيخ ان ينقطع رأسه فيصير جثة بلا رأس.تركناه على حاله ورجعنا الى المركب لنوقظ رفيقتنا ونواصل الرحلة ... وكنا نطمع في أن نبتدع حيلة تمكننا من استقلال« مركبة الاحلام الارضية » دون أن يؤثر موت الشيخ في مسيرتنا . ولكننا عندما وقفنا حيال المركب راعنا ما وجدناه من جرذان كثيرة ، كانت كلها تثقب العجلات التي يسير عليها المركب . كان الجرذ كبيرا كالكلب الصغير ، وله انياب طويلة كالخنزير .. خشينا على رفيقتنا من هذه الجرذان الوحشية ... ولكن الاطمئنان رجع الينا لما فرت الجرذان يدفعها الذعر عندما وصلنا المركب .. رأينا ان العجلات الاربع قد ثقبت ، وان محاولة استقلال « غرفة الاحلام الارضية » من جديد من المحاولات التي لا جدوى فيها ، فالعجلات مثقوبة ، والذئاب الثلاثة الباقية لا تستطيع جر المركب و « آرم » لا يمكنه ان يحلّ محل الشيخ ، لانه لا يعرف الطريق ، وليست له خبرة بالقيادة ولا بالعالم الذي نحن فيه .

التفت الينا « آرم » بعد اطراق طويل ، وقال لنا بصوت يخالطه الالم :

ـ علينا ان نعود الى الطريق ونتم الرحلة على الاقدام .

ثم سار امامنا فتبعناه تاركين « غرفة الاحلام الارضية » .

سلالم النجوم :

الطريق الذي نسير فيه تملأه الاوحال . والمصب الذي نسير نحوه يفصلنا عنه البعد ... وتزيد من صعوبة الوصول اليه اشواك الوهن التي بذرتها العقول السقيمة ....

لقد ظننا اننا أمسكنا ناصية هذا العالم بمصاحبتنا للشيخ وسكنانا «المركبة الاحلام الارضية» . ولكن ها نحن نعود من جديد الى التعثر في الحفر ، وها نحن الآن نتحمل وخز الاشواك بصبر . لم تستطع رفيقتنا ان تسير طويلا . لقد اخلّ بقواها تعب قديم . قالت لنا ، وهي تعرج من ألم اصابها :

ـ هيا لناخذ قليلا من الراحة .

قال لها « آرم » في لهجة حازمة :

ـ ان « نهر الغرباء » ما زال طويلا . ولا بد ان نصل المصب قبل قوات الاوان .

قالت له ، وهي تبلع ريقها :

ـ سأستريح لحظة .

سألها « آرم » وعيناه تلتهمان الطريق :

ـ كم تستغرق هذه اللحظة من وقت ؟؟

أجابته كالغائب عن وعيه :

ـ بضعة قرون ....

ارتاح « آرم » من قولها . وجذبها من يدها الناعمة برفق ، ثم وضعها على ظهره من جديد ، وسرنا .

كانت صحراء الجياع قد اتسعت عن يميننا أكثر ، وقل منها النفر المتفرقون المتعارضون ، ولكن بدأت تلفحنا برياح سموم حارّة، ولولا نسمة خفيفة باردة تهب من ناحية « نهر الغرباء » لاحترقنا بحرارتها .

لما بدأ الفجر يظهر مع ظهور نور من الشرق لاح لنا على ضوئه خيال أسود في الطريق .. وعن اليمين سلالم تصل ما بين الارض والسماء تم سرنا اكثر الى الامام فبان لنا الخيال الاسود متحركا له فروع طويلة فخلناه شجرة طويلة منحنية على الطريق ... وعندما اقتربنا أكثر تبين لنا أنه حيوان غريب لم نعرف شكله من قبل . فحاولنا الرجوع الى الوراء ، لكن الحيوان نفخ نفخة قوية جمدتنا في مكاننا حائرين ... اقترب الحيوان الغريب منا ، وهو ينفخ كالعاصفة ، فأردنا الهروب ولكن الوزر الذي يثقل كاهل « آرم » منعنا من ذلك .

اقترب الحيوان الضخم نحونا برأسيه العظيمين اللذين لا يشبهان رأس الافعى ولا رأس الحمار ، ولكن شكلهما غريب غير مألوف لدينا ، في كل واحد منهما فم واسع مخيف أشبه شيء بالمغارة .

قصد الحيوان « آرم » فأنزل المرأة من فوق ظهره ، وفتش حزامه من جديد ، وأخرج مديته الكبيرة الشبيهة بمدية الجزار . وحاول الدفاع بها عن المرأة وعن نفسه فقطع قرنين من قرون الحيوان. أما أنا فقد رميت الرمل في عينيه فلم أفلح .

ازداد الحيوان اقترابا ، وصوّت صوتا مزعجا جعل « آرم » يتخلى عن المرأة رغم ارادته ، ويقصد أحد السلالم فيصعدها بسرعة ... ثم تدرج في مدارجها بعزم ... وفتح الحيوان فمه أكثر وقصد اكل المرأة في جلبة مزعجة فجرت امامه صائحة . ولكنه تتبعها ، فلم يعد كثيرا حتى أمسكها بين فكيه . عند ذلك لم تصح المرأة ولم تتكلم بل جمدت من الخوف ... ولكنها كانت بين الحياة والموت تلوح بيديها الصغيرتين الى « آرم » عندما كان يصعد سلالم النجوم ، قال لها بصوت مرتفع ، وقد ابتعد عنها كثيرا في الفضاء :

ـ انك لن تموتي ، يا عزيزتي ، مهما ألمت بك المصائب الضخمة، لان نشوءك قد اقترن بالخلود . ووجودك سبب العالم ... سأعود اليك،يا حبيبتي ، عندما أحمل سلاحا جديدا من النجوم ، وأخلصك من فم الحيوان الضخم حتى تسيري من جديد على الطريق ...

عند ذاك ثارت زوابع عنيفة أهاجت « نهر الغرباء » ففاضت مياهه ، وغمرت السلاحف الراعية في اطمئنان ، وجرّتها الى التيار بقوة ... ولكنها لم تستطع جرّ الحيوان الضخم ذا المنظر البشع الممسك بالمرأة بين شدقية ، لانه كان طويل الاقدام ذا جسم ضخم لا يقوى على حمله الطوفان ...

نور الدين بن بلقاسم